

الجسد والحداثة : مقارنة أنثروبولوجية.

Body and Modernity, anthropological approach.

منصور مرقومة*

margoum64@gmail.com

تاريخ الإرسال: 15-04-2020، القبول: 16-05-2020، النشر: 29-06-2020.

ملخص :

نحاول في هذه الورقة التطرق إلى الاهتمام بالجسد في العصر الحديث، حيث حظي الجسد بنوع من الإحاطة غير المسبوقة في ميادين مختلفة، خاصة في جانب التداوي أو التزين والاهتمام بالمظهر الخارجي. سنتناول بعض الممارسات الخاصة بالجسد بالتركيز على ما هو عصري وحديث أملت الانفتاحات التي عرفها الإنسان على مختلف الثقافات العالمية أو المحلية، خاصة في حالات التألق وإصلاح المظهر الخارجي من حيث اللباس أو استعمال وسائل الزينة والجمال المختلفة والمتنوعة، فلقد أصبح الجسد مؤسسة توليها المجتمعات المختلفة الأهمية البالغة وتحيطها بالرعاية الكبيرة والدقيقة، ومرآة عاكسة للثقافات المختلفة بصفة عامة ولشخصية الفرد الذاتية بصفة خاصة. وهذا ما سنحاول التطرق إليه بنوع من التفصيل في هذه المقالة التي تستمد روحها من الظواهر المعاشة محليا وعالميا.

الكلمات المفتاحية : الجسد، الحداثة، الأنثروبولوجيا، الثقافة، الموضة.

* أستاذ التعليم العالي، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة مستغانم - الجزائر.

Abstract :

In this article, we try to put forward the interest carried today at the human body at the time when the man has took care of his body in a way without precedent, especially as regards therapy, of beauty and care of appearance. By there, we try to treat some practices of the body by what is modern and contemporary, dictated by the opening of the man on the various world and local cultures, in the event of care of the appearance, in terms of equips or varied means of beauty. The body became a kind of institution, to which the various communities carry extremely important interest, and surrounds it by care of a high degree of accuracy; it became the mirror reflecting the various cultures in general. It is what we try to treat in detail in this article.

Keywords: Body, Modernity, Anthropology, Culture, Mode (Fashion).

مقدمة:

إن اهتمام الإنسان بجسده ناتج في حقيقة الأمر عن أهمية الجسد في حد ذاته، ذلك أن الإنسان منذ أن خلقه الله سبحانه وتعالى، وجد نفسه جسدا وروحا يحيا بهما ولهما، ويبدل كل ما في وسعه من أجل رفعتهم، والمحافظة عليهما، والنأي بهما عن المكدرات والمحزنات وكل ما من شأنه الانتقاص من قيمتهما. غير أن التفاضل الحاصل بينهما جعل أحدهما، في زمن من الأزمان، يعلو مرتبة عن الآخر، ويستحوذ على الاهتمام البالغ مقارنة بنظيره (الجسد/ الروح). ولقد حظي الجسد في ذلك بنوع من الاهتمام الكبير نتيجة لتلك المكانة التي يحتلها، ونتيجة لذلك التواجد المتعدد في كل مناحي الحياة. "غريب أمر هذا الجسد كيف يتداخل في شتى مجالات التفاعل التي تلف الإنسان من كل جهة واتجاه،

يتداخل في عالم الدين والإيمان، في عالم الاجتماع والتجمع، في عالم الرموز والمسالك اليومية بين البشر. وضع الجسد مرآة لشخص صاحبه، يعكس بُعد الإيمان الديني بقدر ما يعكس منزلة المرء، خلقه، أخلاقه، منشأه، حسن سمعته، أو سوء معاملته "(إسحاق الخوري، 1997، 1).

إن درجة الاهتمام الكبيرة بالجسد، والتي لم تعد حكراً على مجتمع من المجتمعات، أملت علينا ضرورة الاهتمام بهذا الجسد من ناحية الدراسة والبحث، فلقد اهتمت كثير من الدراسات والبحوث بهذه المؤسسة في السنوات السابقة، وتواصلت بشكل مكثف في العصر الحديث ولدى جميع المجتمعات، في حالات الراحة والنشاط، والتعب والإعياء، والصحة والمرض، والحل والترحال، سواء بالنسبة للذكور أو الإناث، بالنسبة للكبار أو الصغار. كما ظهرت كثير من المؤسسات المرتبطة بالجسد ومن أجل الجسد (صالونات الموضة، محلات الألبسة الفاخرة وأدوات الزينة والتجميل، المؤسسات الاستشفائية والاستجمامية، صالونات الرياضة...)، كلها في خدمة الجسد وتلبية لضرورات مرتبطة به، وعليه سوف نتطرق إلى العناصر التالية التي ارتأينا أنها تخدم جوانب الموضوع المشار إليه.

أولاً: ضبط المصطلحات

1- **الجسد:** لم يجمع الباحثون على تعريف واحد للجسد، فالمعاني متضاربة ومتفاوتة في تحديد مفهومه أو ماهيته، وعلى العموم فإن الجسد الذي نقصده هو "جسم الإنسان" وحده من بين سائر الحيوان (علي حرب، 2012). ويؤكد أفلاطون على أن "الجسد هو في شبه لما هو إنساني بالتحديد وللغائي وغير العاقل والمتعدد الأشكال، والقابل للانحلال والمتبدل" (ابراهيم أحمد، 2012، ص23). أو المفهوم الذي يقدمه دافيد لوبروتون (David Le Breton)، وهو أحد المختصين في الدراسات والبحوث حول الجسد، بأنه

الإنسان المشرَّح «L’homme anatomisé» (Le Breton, 2011, 39)، أي جسد الإنسان الذي كشفت خباياه وفضحت أسرارهِ. الجسد أيضا كمعطى اجتماعي وثقافي، متصلا بالذاكرة الجماعية والمخيل والمشاعر المشتركة والمكان (عبد اللاوي، 2012، ص110)، وهي المفاهيم التي سنحاول التركيز عليها في هذه الورقة.

2 - الحداثة:

نقصد بها إجراءات هنا، تلك الحالة من التقدم والرقى التي وفرها تطور العلوم والتكنولوجيات الحديثة ووسائل الاتصال الجماهيري (وسائل التواصل الاجتماعي مثلا)، فاستحال فيها العالم إلى قرية صغيرة تتواصل فيها أطرافه المترامية بكل سهولة ويسر، وتنقل فيه السلع والمعلومات من جهة إلى أخرى دون معاناة تذكر. إن الحداثة إذا كانت مصطلح له حقله الدلالي فهي تشير حسب الجابري إلى "حالة معينة خاصة بأوروبا. ذلك أن الحداثة في مدلولها التاريخي هي التنظيم العقلاني للإدارة والاقتصاد والعلاقات السياسية" (الجابري، 1999، 292). و حسب الجابري دائما، فإن هذه الحداثة جاءت نتيجة القطيعة التي أحدثتها أوروبا مع فكر النهضة، ولأنها استوعبت ماضيها وعملت بتراتها وجعلت منه جزءا لا يتجزأ من الذات و لا ينفصل عنها، فحققت النهضة والحداثة والتحديث (الجابري، 1999، 292، 293). ولكن ليس بشكل متلازم حيث كانت النهضة ثم التحديث كقاعدة للحداثة (مرقومة، 2014، 110). و"تشير الحداثة بوجه عام إلى أنماط ونظم الحياة الاجتماعية التي ظهرت في أوروبا ما بعد الإقطاع، والتي تصاعد تأثيرها على مستوى العالم في القرن العشرين...ومن ضمن آثار الحداثة الكثيرة إسهامها في ارتفاع درجة تحكم الدول بوجه عام، والمهن الطبية بوجه خاص في أجساد المواطنين" (شلنج، 2009، 21)، وكشف الكثير من خبايا هذه الأجساد التي لم تكن في السابق ضمن مقدور السيطرة والفهم أو البحث على أقل تقدير.

ثانيا : الجسد قديما

تقر الدراسات المختلفة التي أجريت حول الإنسان منذ القديم وعبر مراحل مختلفة من تاريخ البشرية، أن الإنسان شكل بعددين أساسيين وهما الجسد والروح، الجسد الذي يمثل الجانب المادي الملموس والمحسوس، والروح (النفس) التي تمثل الجانب المعنوي الغيبي الميتافيزيقي¹. لقد كان الفصل واضحا بين الروح والجسد، "فهما متمايزان، ولهما مصيران مختلفان، الأولى للخلود، والثانية للفناء. وقد استمرت هذه الثنائية عبر الفلسفات المثالية اليونانية عند سقراط وأفلاطون، والإسلامية عند ابن سينا، والغربية الوسطى والحديثة منذ ديكارت" (حنفي، 2009، 7). فقدما كان الفكر الفلسفي بصفة عامة يهتم أكثر بما وراء الملموسات أو المحسوسات، ويتعداها إلى الغيبيات والميتافيزيقيات. ولقد احتل الجسد مرتبة دون الروح أو النفس. ولما كانت النفس أعلى وأفضل وأبقى، فقد حظيت بالاهتمام البالغ، بينما تعرض الجسد بالمقابل إلى الإذلال والانتقاص من قيمته وربما إلى التعذيب، ففي بعض المجتمعات والديانات كان لتعذيب الجسد متعة يُسعى من خلالها إلى طلب السعادة والرضى النفسي والروحي. فهذا الهندي الذي تدحرج آلاف الكيلومترات إرضاء لما يعبد من آلهة، وهذا الذي يطيل لحيته أمتارا كثيرة، وهذا الآخر الذي لم يستحم لأكثر من خمسين سنة، والأمثلة كثيرة ورغم أنها من واقعنا المعاصر، إلا أنها تمت بالصلة البالغة لاهتمام الإنسان بالروح على حساب الجسد في العصور الغابرة. إن إهانة الجسد مقابل إعلاء قيمة الروح لم تغب حتى من صميم الفكر الديني وفلسفته في بعض الديانات، "أما المثال الروحي الأعلى أي القديس، فإن قداسته تثبت دون أي التباس أو مناقشة، عندما يضحي بجسده في الاستشهاد... وشيطة الجسد في القرون الوسطى، كان من شأنها حرمان الجسد من كل

¹ في الجاهلية كان المشركون يقولون أنهم لا يعبدون الأصنام والأوثان (الأجسام) التي يصنعونها من الحجارة والخشب، وإنما يعبدون الروح التي تسكنها لتقرهم إلى الله زلفى، فكان الفصل واضحا بين الجسد والروح.

كرامة... إن إهانة الجسد والنموذج الرهباني كان لهما بدون شك تأثير مرجح على عادات الغرب وعقليته" (شانتال، 2008، 51-52). بالمقابل أكد الإسلام في تشريعاته على ضرورة حفظ الجسد على اعتباره أحد مكونات الإنسان**، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حين أكد على وحدة الإنسان ككائن متكامل جسدا وروحا لا يقبل الفصل بين مكونيه هاذين، وضرورة تكريم هذا الكائن وتفضيله على سائر المخلوقات***. وهو ما أكدته عدد من الباحثين والفلاسفة والفقهاء القدماء أو المحدثين، فقد رفض عدد منهم التقسيم القائم على الثنائية روح وجسد أو نفس وبدن، "وذلك برفض الثنائية منذ البدء، والميل إلى نوع من الوحدة... وخلاصة الحل المقترح أن نبدأ بأخذ تصور الإنسان تصورا أوليا بسيطا لا يقبل التحليل إلى نفس وبدن وأن نأخذ النفس والبدن على أنهما تصوران تابعان لتصور الإنسان مشتقان منه" (فهيم، 2004، 7). غير أن التفاضل قد يكون مميزا لمكون على حساب الآخر نتيجة لاهتمام مفرط، أو لتقصير مقصود، تكرسه الثقافة والاجتماع.

ثالثا : الجسد والحداثة

لم يبق هذا الاهتمام في عصرنا كما كان قديما، فقد وصل إلينا في الوقت الحديث بنوع من الاختلاف والتباين. بحيث أصبح الجسد يعرف نوعا من الصعود في سلم التصنيف مقابلة مع الروح، وهذا في ظل ظهور الماديات وطغيانها على الحياة البشرية. "إن عودة الجسد إلى الإنسان وعودة الحاضر إلى الوجود ليكون حرية، هو تأويل جديد للحداثة باعتبارها

** انظر في ذلك كتب الفقه الإسلامي المختلفة، باب مقاصد الشريعة الإسلامية: حفظ الدين، والعقل، والمال، والنفس.

*** وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين. (القرآن الكريم،

سورة ص، الآيتين 71 و72)

العصر الذي ينتظم إيطيقيا حول (الحق في الحاضر) أي (الحق في الجسد)" (بومسهولي، 2010، 41).

إن ما يعرفه الإنسان في عصرنا الحديث من اهتمام بالجسد، يرجع في اعتقادنا إلى ذلك النزوع إلى تحرير الجسد من تلك الإكراهات المفروضة عليه، "حيث أن نزوع الجسد إلى التحرر أقوى من نزوع النفس، فقد كان كل نزوع جسدي مدان، والرغبة هي علامة بؤس الإنسان، والجسد هو سر شقائه" (التليلي، 2009، 152). لقد أصبح الاهتمام بالجسد كمظهر خارجي، وكواجهة للفرد تعكس بعضا من صفاته وتوجهاته، أو على الأقل تجعل الناظر إليه أو المتواصل معه يعتقد ذلك. نستطيع أن نلمس ذلك من خلال أنواع الموضة من لباس وأدوات التبرج والتزين، وتسريحات الشعر، والوشم، ورياضة كمال الأجسام، والطب الحديث في كشف أسرار الجسد ومكنوناته... أي أن الجسد اندمج في الرموز والدلالات والعلامات المستوحاة من الثقافة السائدة في المجتمع الذي يعيش فيه، "نحن لا نعيش على الطبيعة، وإنما نقيم بيننا وبينها وساطة، هي الرموز التي ابتدعناها؛ والجسد (وفق مارلو بونتي) هو المنظومة الرمزية بامتياز للعالم، فهو لغة العالم من خلاله نقرأ العالم، فهو يمثل شاشة بيننا وبين الأشياء، وهو المرآة التي تعكس الموجودات من حولنا" (التليلي، 2009، 157). وأصبح الجسد موردا شخصيا ورمزا اجتماعيا يعرف ترويضاً واهتماماً، وأصبح مشروعاً يترجم عن هوية الشخص الذاتية (شلنج، 2009، 24). كما انعكس هذا الاهتمام على المظهر الخارجي للجسد الذي يعكس في كثير من الأحيان ما تخفيه النفس البشرية من معتقدات وأحاسيس تملئها الحالات الشعورية النابعة سواء عن عقيدة أو سلوك أو عادة تكرسها الأعراف والتقاليد وترسخها الثقافة باعتبارها جامعة لحياة المجتمع.

إن ما ساعد في تكريس فكرة تحرر الجسد، وسائل الاتصال الحديثة التي جعلت الوصول إلى أبعد نقطة ممكنة في العالم لا يتعدى كبسة زر من وراء جهاز الحاسوب أو

الهاتف الذكي. إن شركات الإعلام والاتصال الكونية، غزت بسلعها ومعلوماتها جميع الأسواق العالمية، بفضل سياسات الإشهار المعتمد على الإغراء، الإغراء في المأكّل والملبس واقتناء الحاجيات بواسطة الجسد الفاتن، خاصة الجسد الأنثوي لأنه الأكثر فتنة وإثارة، والوسيط الأنسب لإخضاع العقل لمتطلبات الجسد. "أما الجسد فإنه ينتظم داخل ما يسميه سبينوزا بالشهوة التي تعي ذاتها، أي بالرغبة التي هي ماهيته وأساس كينونته، والجسد من حيث هو نظام الرغبة فهو حقل الحرية، إنه ما ينتزع الوجود الإنساني من الضرورة التي ينتجها نظام الحاجة، فلذلك فالجسد غير ممكن خارج التحام الحرية بالرغبة" (بومسهولي، 2010، 39)، هذه الرغبة التي تسيطر على جميع مناحي الحياة، بل أصبحت من ضرورات الجسد تدفع بصاحبه إلى مزيد من إخضاع البيئة الاجتماعية والثقافية لمتطلباته، وأصبحت أجسادنا توصف بالأجساد الثقافية (توماس، 2010) على اعتبار أنها خاضعة لثقافتنا ضمن مجتمعاتنا المتغيرة والمتحولة جراء أسباب ومناخات متعددة.

إن هذا الاهتمام البالغ والمتسارع لم يكن في اتجاه الرضى فقط عن الجسد، بل أصبح بالمقابل جالبا للتعاسة أيضا حين نعجز عن الارتقاء به إلى تلك المتطلبات. إن بعضا من المؤشرات التي كانت في السابق علامة من علامات الجمال، أصبحت في وقتنا الحديث نقمة على حامل الجسد الذي توصف به، كالسمنة مثلا، فلقد بينت كثير من الدراسات والبحوث "أن الوزن الزائد يعتبر سببا رئيسا لعدم الرضا ليس فقط عند النساء بل عند الرجال أيضا" (الصادق، 2009، 182). إن توثين الجسد كما يذكر أحد الباحثين (الصادق، 2009، 169)، أعطى لهذا الجسد مكانة لم يعرفها من قبل. إن مظاهر الوشم التي يقوم بها بعض الأفراد (كالفنانين والرياضيين) على أجسادهم، فرضت نفسها على باقي أفراد العالم باعتبارها طريقة من طرق التعبير وسبيلا من سبل التحرر وإطلاق الجسد، زد على ذلك تسريحات الشعر وطرق الحلاقة للرجال والنساء التي أصبحت من مظاهر التقدم والرقي،

بعدها كان بعضها في السابق من علامات الانحراف والميل عن الطريق السوي والأخلاق الحميدة. "إن العالم الراهن يدوس الطابوهات، ويمجد الجسد" (الزهرة ابراهيم، 2009، 109). هذا الأخير، أصبح عرضة لكل اقتحام بواسطة التكنولوجيات الحديثة، في مجال الطب العلاجي أو الجمالي، مما أدى إلى اكتشاف أجزاء منه كانت في السابق من قبيل الممنوعات والطابوهات، وهذا بفضل الطرق العلاجية المتطورة كاستعمال البنج، واستعمال الأشعة الكاشفة، واكتشاف الفصائل الدموية وغيرها، ومما أدى أيضا إلى تجاوز الكوابح الأخلاقية التي أثارت الجدل كطفل الأنبوب واستنساخ البشر (الزهرة ابراهيم، 2009، 87 بتصرف). إن الجراحات التجميلية، ورياضة كمال الأجسام، واستعمال أدوات الزينة والتبرج ذات الجودة العالمية التي تصورها وسائل الإعلام والإغراء، جعلت كثير من المجتمعات تسعى وراء أجساد كاملة ومرغوبة حسب ما تمليه ثقافتها السائدة، وفي كثير من الأحيان حسب ما تمليه ثقافات المجتمعات التي عرفت كيف تجعلها خاضعة لمستلزمات الجسد. فالتمثيل وعرض الأزياء، وسيادة مفاهيم الرشاقة والجمال والصحة، أعطت للجسد مكانة متميزة وجعلته عاملا مهما ومؤشرا على المكانة الاجتماعية للفرد، ورأس مال رمزي، وأمرا محوريا في اكتساب المنزلقة وتحقيق التميز (شلنج، 2009، 28 و169).

خاتمة :

كان ولا يزال إلى وقتنا الحالي الاهتمام بالجسد من الأولويات التي يوليها الإنسان الجهد والمال، وتزايد هذا الاهتمام بلغ في بعض الأحيان درجات عالية، سواء من حيث أشكال التداوي، أو من حيث أشكال الزينة والجمال، وقد تعداه إلى اكتشاف كثير من أسرارهِ، متجاوزا بذلك بعضا من أخلاقيات التعامل معه. إن التنافس الذي يديه الإنسان للوصول إلى الكمال الجسدي، كان في حقيقة الأمر على حساب الروح أو النفس كما يذكر

الكثير من الدراسات المستفيضة في هذا المجال². إن الرضا المطلق عن الجسد، والذي يسعى الإنسان الحديث إلى تحقيقه، قد لا يكون رضا كاملاً، لأن الرضى الظاهري ليس هو نفسه الرضى الواقعي، فالجراحة التجميلية والمساحيق أو الملابس أو النظارات الشمسية، لا تخفي الحقيقة الواضحة التي يلمسها الفرد في نفسه وعن نفسه (عالم الفكر، 2009، 182-184). إن حدود الجسد (الإعياء، المرض، الموت) تقف عاملاً مهماً دون الوصول إلى هذا الكمال (بن حنيرة، 2008، 237)، وهي في رأينا، العوامل الأكثر تشاركاً على الإطلاق بين كل البشر، إذ يقف الإنسان الحديث عاجزاً أمامها في الاحتفاظ بجسده في حالته المثالية³.

قائمة المراجع

1. القرآن الكريم
2. السنة النبوية الشريفة
3. إبراهيم أحمد وآخرون، الجسد وتمثلاته في الفلسفة الإسلامية، دار AGP، وهران، الجزائر، 2012.
4. حسن حنفي، الروح والجسد في القرآن الكريم، مجلة عالم الفكر، العدد 4، خاص بالجسد، المجلد 37، الكويت، أبريل-يونيو 2009.
5. الزهرة إبراهيم، الأنثروبولوجيا والأنثروبولوجيا الثقافية، وجوه الجسد، النايا للدراسات والنشر، دمشق، سورية، 2009.

² المراجع التي اعتمدناها في إنجاز هذا المقال وغيرها.

³ على رأي الشاعر العربي: فقد تساوى في الثرى راحل غداً وماض من ألوف السنين.

6. شانتال شواف، الفصام بين الجسد والفكر، ترجمة ناهدة ريان، قاسم الشواف، دار النشر "بدايات"، سورية، 2008.
7. الصادق رابح، ضريبة (السعادة): الإشهار وتوثيق الجسد، مجلة عالم الفكر، العدد 4، خاص بالجسد، المجلد 37، الكويت، أبريل-يونيو 2009.
8. صوفية السحيري بن حتيرة، الجسد والمجتمع، دراسة أنثروبولوجية لبعض الاعتقادات والتصورات حول الجسد، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، دار مُجدد علي، تونس، 2008.
9. عبد الرحمان التليلي، عنف على الجسد، مجلة عالم الفكر، العدد 4، خاص بالجسد، المجلد 37، الكويت، أبريل-يونيو 2009.
10. عبد العزيز بومسهولي، تجربة الجسد أو الحق العيني للوجود البيجسداني، مركز الأبحاث الفلسفية، المغرب، 2010.
11. علي حرب، الجسد هو الأصل، العورة والجنة، ضمن إشكالية الجسد في الخطاب العربي الإسلامي، وقائع المؤتمر الدولي، 15 و 16 أبريل 2012، قسم الفلسفة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة مستغانم، الجزائر.
12. فؤاد إسحاق الخوري، إيديولوجيا الجسد، رموزية الطهارة والنجاسة، دار الساقبي، بيروت، لبنان، ط1، 1997.
13. كرس شلنج، الجسد والنظرية الاجتماعية، ترجمة منى البحر ونجيب الحاصدي، دار العين للنشر، القاهرة مصر، وكلمة، أبو ظبي الإمارات العربية المتحدة، 2009.
14. مُجدد عابد الجابري، المسألة الثقافية في الوطن العربي، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1999.
15. محمود فهمي زيدان، في النفس والجسد : بحث في الفلسفة المعاصرة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، 2004.

16. منصور مرقومة، سؤال الحداثة، مجلة "الكلمة"، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، العدد 85 بيروت، لبنان، 2014.
17. الناصر عبد اللاوي، ملامح الجسد الخاص في ظل الرهان الإيتيقي راهنا، ضمن إشكالية الجسد في الخطاب العربي الإسلامي، وقائع المؤتمر الدولي، 15 و 16 أبريل 2012، قسم الفلسفة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة مستغانم، الجزائر.
18. هيلين توماس وجميلة أحمد، الأجساد الثقافية: الإثنوغرافيا والنظرية، ترجمة أسامة الغزولي، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2010.
19. David Le Breton, *Anthropologie du corps et modernité*, Quadrige/ PUF, 6^e éd. Paris, 2011.